

الأهداف التربوية

لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومكانتها في تاريخنا

✍ أ.د/ مسعود طيبي

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

قبل البدء في معالجة الموضوع المطروح، أرى من الضروري إيضاح ضرورة ارتباط الأسس والمبادئ التربوية بالأهداف الاجتماعية والسياسية عند اليونانيين.

إذ يرى اليونانيون، على رأسهم الفيلسوفان أفلاطون وأرسطو طاليس، أن أهم غاية يسعى الإنسان إلى تحقيقها هي غاية الدولة، لهذا اعتقد أرسطو طاليس، بأن الإنسان مدني (أو سياسي) بالطبع¹، وقال بوجود الدولة السابق عن وجود الفرد، لأن سعادة الإنسان كفرد لا تتحقق إلا ضمن الدولة، لكون الشخص بمفرده لا يحقق اكتفائه الذاتي، لهذا أسس الأسرة، ثم القرية أو القبيلة، ثم الدولة، كأقصى تجمع بشري كبير تتحقق فيه سعادة الإنسان.

وقد تفتنوا إلى أن تأسس الدولة عمل لا يرتجل، ولا يبدأ من أعلى إلى أسفل، بل لا بد من التمهيد له بالتربية كأساس قوي لا يمكن الاستغناء عنه إذا ما أردنا تأسيس دولة، لأن الدولة الفضلى التي تتحقق بموجبها سعادة الأفراد كما يرى أرسطو طاليس، ليست "في يد الاقدار أو من صنع الاقدار وإنما من صنع العلم والإرادة الحرة"²، ولا تكون الدولة فاضلة إلا "لكون المواطنين المشتركين في السياسة أفاضل"³، ولا يمكن توفر هؤلاء الفضلاء إلا

¹ - أرسطو طاليس، كتاب السياسات، ترجمة الاب أوغسطينس بربارة البولسي، الهيئة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية بيروت - لبنان 1957، ص 10.

² - نفسه، ص 394.

³ - نفسه، ص 394.

بفضل التربية القويمية المخطط لها، والتي تقوم على مبادئ أساسية، وتحقق أهدافاً وغايات نبيلة.

والمبادئ التي تؤسس عليها التربية عندهم، والأهداف التي ينبغي تحقيقها، لا تخرج عن طبيعة النفس البشرية، وتقسم عندهم إلى ثلاث قوى، هي القوة العاقلة، والقوة الانفعالية، والقوة الشهوانية، ويقابلها جملة من الفضائل ينبغي تحقيقها وعددها أربع، تعتبر عندهم أمهات الفضائل على الإطلاق، وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

.الحكمة مصدرها العقل، ويقابلها الجهل.

.والشجاعة مصدرها القلب أو الصدر (الانفعالات) ويقابلها الجُبْنُ.

.والعفة والأعمال الجميلة؛ مصدرها الغرائز والرغبات والأهواء وتقابلها

الشهوات.

وانسجام هذه الثلاث دون إفراط ولا تفريط هو العدل، ويقابله الظلم والفوضى، في الفرد والدولة على حد سواء، إذ يقول أفلاطون: "إن أصل العدالة وماهيتها، فهي وسط أو توفيق بين خير الأمور وشرها"¹.

الأمثلة من الواقع:

ينتقد أرسطو طاليس دستور إسبرطة (Lacédémonie) Sparte ومنظومتها التربوية اللذين ركزا على فضيلة الشجاعة دون غيرها من الفضائل المذكورة، فكانت دولة استنفارية (حربية) غايتها التوسع وإخضاع الشعوب اليها، ولكنها عندما عادت إلى السلم فشلت لكونها لم تخطط في دستورها ومنظومتها التربوية إلا للحرب وتحقيق فضيلة الشجاعة، ولم تخطط وتربي أفرادها من أجل السلم وممارسة الحكمة والعفة والعدل، إذ يقول: "ففي تقييمهم دستور (Lacédémonie) أو إسبرطة Sparte

¹- أفلاطون، الجمهورية، ص142.

ينظرون بمزيد من الإعجاب إلى [هدف] المشتري الذي وجه كل شرعه إلى السيطرة والحرب، وهذا التوجه الذي يسهل على العقل تَخْطِئَهُ، قد بينت الحوادث الحاضرة نفسها فساده¹.

كما أن المدينة الدولة أثينا التي تتصف بصفة "الميل إلى العلم التي نلتمسها في بلدنا"²، كما يقول أفلاطون، ركزت على فضيلة الحكمة، فاشتهرت بالفلسفة والفلاسفة والحكماء وكانت دولة مسالمة ولكنها كانت دائما ضحية للحرب عندما تنشأ بينها وبين إسبرطة، لأنها ركزت في دستورها ومنظومتها التربوية على ضرورة تحقيق فضيلة الحكمة وأهملت بعض الفضائل الأخرى كالشجاعة.

وهكذا لم تتحقق السعادة لكليهما (إسبرطة وأثينا)، لأن السعادة تتحقق بتكامل وتوازن وانسجام الفضائل كلها.

أما بالنسبة لأهداف التربية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومكائنها، فإنه يمكن القول؛ بعد مرور قرن كامل على احتلال فرنسا للجزائر وهو سبب احتفال مهيب قام به المحتل معبرا عن انتصاره وإخضاع الجزائر إلى سلطته، وقد اعتبرها امتدادا لفرنسا، شعبا وأرضا ومكاسب مادية ومعنوية.

صادف الاحتفال بمرور قرن على احتلال الجزائر، وضمها نهائيا إلى فرنسا، ظهور وعي نادر عند بعض خيرة أبناء الجزائر البررة، وعلى رأسهم الإمام عبد الحميد بن باديس، فأنشأوا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت لها أسسها ومبادئها ولها أهدافها وغاياتها، ولها مناهجها وأساليبها في الإصلاح.

¹- أرسطو، السياسيات، نفس المصدر السابق، ص 399.

²أفلاطون، الجمهورية، ص 142..

ماذا كان يجول في شعور وأذهان هؤلاء الرواد، ما هي أهدافهم البعيدة والقريبة، أو الكبرى والصغرى؟ وما هي مشاريعهم الهامة ذات الأولوية؟ وما هي وسائل وأساليب تحقيقها؟

لاشك أن أهم هدف يدور حوله الحوار والنقاش ولا يفارق الشعور الواعي لدى رواد الجمعية هو احتلال الوطن، والخضوع بالقوة إلى دولة أخرى معادية، تفرض عليهم قوانين استبدادية جائرة، تتعارض في مبادئها وأهدافها ووسائلها مع ما يطمح إليه الجزائريون، وتختلف في مقوماتها مع مقوماتهم، تمارس عليهم التفرقة العنصرية، وتعمل على مسخ الشخصية الجزائرية، والقضاء على المقومات الوطنية، واستئصال الهوية الراسخة في طبائعهم، ومحاولة إبادةهم لتحل محلهم، واستنفاذ وهدر خيرات وطنهم، وضم الجزائر رسميا إلى فرنسا كامتداد طبيعي لها حسب زعمهم.

إنما كان يفكر فيه هؤلاء الرواد ولا ينفصل عن شعورهم أبدا، وربما عن شعور كل جزائري هو:

.الطموح إلى الحرية واستقلال الجزائر وطردها فرنسا.
.تأسيس دولة معاصرة ذات مبادئ قيومية، تحقق سعادتهم وتلم شملهم.
.العودة إلى مقوماتنا والحفاظ على هويتنا.
.الانتماء إلى حضارتهم وأمتهم الإسلامية؛ عربية/وأمازيغية .
وجدت الجمعية أن اقرب السبل إليها لتحقيق الغاية العظمى، هو الاهتمام بالتربية، إذ لا يقوم شأن أمة من الأمم نتيجة تفريطها وعدم اعتنائها بهذا الجانب الضروري وإهمالها له، وعدم اهتمامها به، والجزائر كذلك، وهو ما يشير إليه أحد أعضاء الجمعية آنذاك قائلا: "إن المسلمين الجزائريين في أزمة اجتماعية أخلاقية شديدة (مشيرا إلى حالة المدارس التقليدية) بما فرطوا في جنب التربية المدرسية، إذ لم يعن بالتربية فيما العناية الكافية، ولم يقرروا من النظم والبرامج ما تدعو إليه حاجة

العصر"1. إلى أن قال على لسان بعض المفسرين، وهذا لشدة حماسه إلى التربية: "إن الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان"2، إنما هي التربية"3.

نستنتج من هذا النص، بأن الأزمة الأخلاقية التي كان يعيشها الشعب الجزائري آنذاك، هي أولا وقبل كل شيء أزمة تربوية، سببها تفريط الجزائريين في العناية الكافية بالمدرسة، لم يضعوا لها الأسس والمبادئ ولم يقرروا لها النظم والبرامج، ولم يحددوا الأهداف والغايات، ولم يعتنوا بالمنهج والوسائل التي تحقق ذلك.

وانطلاقا من إحساسهم واعترافهم بوجود أزمة تربوية، حدد منظرو التربية والتعليم في الجمعية ثلاث جهات:

الجهة الأولى: التصدي للتعليم التقليدي:

كما هو معلوم أن الدولة الجزائرية عهد العثمانيين لم تتول أمر التربية والتعليم، وتركته حرا في أيدي الأفراد والمشايخ والأسر والجماعات الدينية تتصرف فيه كما تريد، واستمر هذا حتى وقت متأخر بعد الاحتلال، أي إلى أن تأسست الجمعية عام 1931، وكان هذا التعليم الحر تقليديا جدا "يدور في الغالب" حول الدراسات الدينية واللغوية، ولا يكاد يخلط معهما شيئا آخر من علوم الحياة، أو التاريخ، أو الجغرافيا ولذلك كان بعيدا عن اهتمامات العصر، واهتمامات المتعلمين"4، فكان هذا التعليم المكتبي بوجه عام على حاله لا تبعث في النفس إلا الحيرة والأسى البالغين، إذ لم يزل على الطريقة المقتصرة في تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن كله أو بعضه"5 مع تعلم

1- محمد العيد، البصائر، السنة الأولى، العدد 02، يوم الجمعة 15 شوال 1354هـ، الموافق ل: 10 جانفي 1936م، ص: 03.

2- سورة الأحزاب الآية 72.

3- محمد العيد، نفس المصدر السابق، ص: 03.

4- تركي راجح، التعلم القومي والشخصية الوطنية، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع (دون ذكر بلد الطبع) 1395هـ/1975م، ص: 62.

5- نفسه، ص: 62.

شيء من الحديث الشريف وبعض التفسير، واقتصر في الغالب على الذكور دون الإناث، واهتم بالمادة الدراسية وحفظ التراث على حساب الفرد المتعلم الذي لم يُبال به ولم يكن يهدف إلى تفتح شخصية الفرد واتساع آفاق نظرتها إلى الأمور، ولم يكن هدف التعليم وطنيا يسعى من وراء ذلك إلى استرجاع الاستقلال أو إعادة بناء الحضارة والثقافة، ولهذا فهو لم يحرج فرنسا، لأنه ليس خطرا عليها، فأيدته وشجعتة على الاستمرار والتعاون مع مشايخ الزوايا في تنويم المواطنين وتعميق غفلتهم، والبقاء على جمودهم وبلادتهم، وأكثر منه، عارض أنصاره تأسيس جمعية العلماء المسلمين وأساليها التربوية الحديثة في التعليم، ودخلوا في صراع معها إلى أن أخمدت جذوتهم، لذا يرى العلامة البشير الإبراهيمي على لسان الجمعية قائلاً، بأننا "لا نعتزف بالعلم لهذا الصنف المتهافت على أبواب الزوايا المتعيش من فضلاتها"¹

ويوصف هذا النوع من التعليم في نظر أعضاء الجمعية بالضعيف المشوه، ويعتبرون خريجيه، كما يرى بعضهم، "لا في الأحياء يُعدون، ولا من الأموات يحسبون"²

الجهة الثانية: تصدت الجمعية إلى محاربة المبادئ الأساسية، التي حاولت المدرسة الفرنسية غرسها في قلوب الجزائريين الذين تعلموا على أيديها، وهي: الولاء لفرنسا، الاندماج، التنصير، الفرنسية، محاولة كسب تأييدهم فيما يتعلق باغتصاب الوطن واعتباره قطعة من فرنسا.

الجهة الثالثة: ويمكن تقسيم الأهداف التربوية على مستوى هذه الجهة إلى اثنين:

أولها: يتجسد في تحديد وغرس مفهوم الهوية الجزائرية في أفهام الأمة (مقابل ما كانت تركز عليه فرنسا لطمس هذه الهوية الجزائرية) وهو ما عبر عنه رئيس الجمعية العلامة عبد الحميد بن باديس في جملة من أسباب الشعر الخالد، إذ قال:

¹ - البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع القاهرة، 1428هـ / 2007م، ص:

² - محمد العيد، البصائر، نفس المصدر السابق، ص: 03.

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب.
أورام إدماجا له رام المحال من الطلب.

ثانها: عملت الجمعية على إعادة النظر في التربية والتعليم محاولة تجديدهما وعصرنتهما، وفتحتهما على ما يجري في هذا العصر، وحاجة الأمة إلى العلوم والفنون الحديثة، ففتحت المدارس العصرية في مختلف أنحاء الوطن، وكونت المعلمين وأعدت البرامج، وهذبت الطرق والمناهج وأساليب التعليم.

لقد قامت الجمعية بثورة عارمة فيما يتعلق بالمنظومة التربوية وإصلاح التعليم في الجزائر عهد الاحتلال الفرنسي ومنذ نشأتها عام 1931، إذ نلاحظ أن الأسس التي قامت عليها التربية والتعليم في هذه الآونة، أصبحت أكثر تحديدا ووعيا، وأكثر طموحا وتطلعا إلى المستقبل الزاهر، ركزت التربية والتعليم خلالها على تكوين شخصية وطنية فذة وقوية، متسعة الآفاق، تستطيع تحمل مسؤولية الأمة وبناء مجدها وفخرها.

وفي سياق الكلام عن أهداف التربية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وإصلاح التعليم في الجزائر رغم مقاومة فرنسا الشديدة له، يرى أبو اليقظان (1888 / 1973)¹، وهو أحد رواد الجمعية، ونائب أمين مالها، قائلا: "بعد تذليل العقبات، وتمهيد الطرق، التفت أولئك المصلحون، إلى الناحية الثانية، ناحية الإصلاح العلمي، فدرسوا مسارب الجهل إلى جسم الأمة، وكيف تكون مكافحتها، وأساليب العلم القديمة، وكيف يكون إصلاحها، وحاجة الأمة إلى الفنون الحديثة وكيف يمكن جلبها، فساروا في هذا السبيل خطوات بعيدة، قلعوا ضل الجهل، ونشروا أنوار العرفان، ففتحو المدارس في مختلف البلاد، وهذبوا أساليب التعليم، وقربوا منال العرفان إلى الأفهام، فكانت في الشعب الجزائري الذي كان مضرب الأمثال

¹ - ولد بالقرارة وتوفي بها، أديب وشاعر وفقه ومفسر وداعية وصحفي وهو اجتماعي وسياسي ومؤرخ، له كتاب ملحق السير.

في الأمية، والوطنية، نهضة علمية مباركة، تضم بين أبنائها ثلة من العلماء الفطاحل، والخطباء المصاعق والكتاب المجيدين، والشعراء الفحول¹ و خلاصة القول، ودون التعليق على هذا النص الشاهد على ما قامت به الجمعية في إصلاح التربية والتعليم، وما سطرته من أهداف سامية، أنه يكفيها فخرا، واعتازا لما أدته من دور ريادي في إصلاح المجتمع، انطلاقا من إصلاح منظومته التربوية إصلاحا جذريا أدى إلى إعادة بناء الشخصية الوطنية للإنسان الجزائري المسلم، أن تتوج في نظر النقاد والمؤرخين بالزعامة الروحية أو الأدبية للثورة الجزائرية، ونيل الاستقلال الوطني، ولكن في نفس الوقت نأسف لعدم الاستمرار والإبقاء على مبادئها في التربية والتكوين والإصلاح ما بعد الاستقلال، وهو ما أدى إلى ما نحن عليه في هذا الجانب الذي أصبحنا لا نحسد عليه.

إن أهم ما قامت به الجمعية هو أنها كونت ولأول مرة ما يسمى في مصطلحات الغرب "بالمجتمع المدني". وعي الأمة بمصالحها العامة، وسيما السياسية منها، ووعيا بأنها مصدر السلطة ونظام الحكم، وقبلها لم يكن المجتمع الجزائري على وعي بهذا، وربما منذ بداية عصر الانحطاط، ثم العهد العثماني الذي لم يشارك الجزائريين في قيادة وسياسة أنفسهم، حاول الأمير عبد القادر والانتفاضات الشعبية ولم يفلحوا، لأنهم ركزوا على الحرب ولم يمهّدوا لذلك بالتربية ففشلوا.

وأخيراً إن مفهوم الوطن، كما يرى الأستاذ الدكتور عبد الله شريط رحمه الله، لم يكن محددًا في أذهان الجزائريين بدقة، ويعود الفضل في تحديده لهم إلى جمعية العلماء المسلمين وعلى رأسها العلامة الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله، انطلاقًا من قصيدته الشهيرة التي سبق أن ذكرنا مقطعًا منها، وهي؛ "شعب الجزائر مسلم" وغيرها من آثار العلامة.

¹ - أبو اليقظان، البصائر، السنة الأولى، العدد 01، يوم الجمعة 01 شوال 1354 هـ الموافق لـ 27/12/1935، ص: 06.